إسهامات أعلام إقليم توات في ترسيخ الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء ما بين القرن 16 -19م

د.محمد الزين
قسم التاريخ/جامعة سيدي بلعباس
ezzine-mohammed59@hotmail.fr
أ.د.صالح بوسليم/ جامعة غرداية
salahboussalim@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2018/05/25 تاريخ القبول: 2018/07/21

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز جوانب من جهود علماء إقليم توات جنوب غرب الجزائر في ترسيخ الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء ما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين، وذلك من خلال الوقوف على بعض النماذج من مظاهر التواصل الحضاري لإقليم توات مع بلاد السودان الغربي.

وقد خلصت الدراسة إلى التأكيد على دور الرحلات العلمية، إلى جانب ركب الحج في تدعيم وتوسيع علاقات علماء توات بغيرهم من علماء الحواضر الأخرى، كما كان للزوايا والطرق الصوفية دور في تمتين العلاقات العلمية، ويتجلى ذلك في الجهود التي قام بها المشايخ والعلماء

المتصوفون، من أجل نشر الإسلام وتعاليم مناهجهم الصوفية في إفريقيا جنوب الصحراء.

الكلمات المفتاحية:

إقليم توات؛ إفريقيا جنوب الصحراء؛ بلاد السودان الغربي؛ نشر الإسلام؛ الطرق الصوفية.

Abstract:

This study aims to highlight the aspects of the scientists efforts of the province of Tuwat in south-western Algeria in the consolidation of Islam and Arab-Islamic culture in sub-Saharan Africa between the sixteenth and nineteenth century, by standing on some examples of cultural manifestations of Tuwat province with Western Sudan.

The study concluded by emphasizing the role of scientific trips, besides the pilgrimage to strengthen and expand the relations of the scholars of Tuwat with other scholars of other cities. Zawiyas and Sufi methods have also played a role in strengthening scientific relations. This is reflected in the efforts of the sheikhs and the Sufi scholars for Spreading Islam and the teachings of Sufism in Sub-Saharan Africa.

Key words: Tuwat Province; Sub-Saharan Africa; Western Sudan, spread of islam, sufi methods.

مقدمة:

ردمد 1112-4237 الإيداع القانوني Depot légal868-2003

بدأ إقليم توات، منذ تاريخه المبكر في دعم العلاقات مع العالم الإسلامي، والذي استهله بإقامة صلات ثقافية وطيدة مع الأقاليم المجاورة، وكذا الممالك الإفريقية الإسلامية المعاصرة.

ولم يكن علماء توات في جميع الأحوال يقفون موقف المستجيز المستمنح الطالب دوما للإجازة والسند وطرق التحمل؛ بل وجدناهم – كما ينبئ التاريخ العلمي لهذه الفترة الزمنية- ينهضون بما علمهم من رسالة، ويقومون كغيرهم من العلماء بعد أن نالوا من العلم الذي حصلوه في داخل بلدهم وخارجه بما فرضه الدين والواجب على أمثالهم من الإيصال والإبلاغ؛ فنصبوا أنفسهم للإفادة، فكانوا كما تؤمئ هذه الإشارات التي نستدل بها يقرئون العلم من كانت عنده أهليته، ويُستجازون فيجيزون، وينفعون بنصحهم ومعارفهم الناهلين من أفواههم، ولم يقصروا عملهم الإبلاغي والعلمي على بلديهم من التواتيين فحسب، وإنما أغدقوا به على غيرهم من الوافدين والطارئين على بلادهم، الذين أفادوا من دروسهم وإملاءاتهم ، بل إن بعض هؤلاء الأعلام والعلماء لم يحبس جهده في توات فحسب، بل رحل إلى بلدان قريبة وبعيدة سواء في المغرب أو المشرق العربيين، أو في بلاد السودان الغربي لنشر العلم والمعرفة والإصلاح.

فماهي الوسائل التي ساعدت على انتشار الثقافة العربية الاسلامية في افريقيا جنوب الصحراء؟ وما هي أبرز جهود أعلام ومشايخ توات في ترسيخ الإسلام بتلك الممالك الإسلامية والأقاليم الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء (بلاد السودان الغربي)؟

تعتبر الزاوية في إقليم توات، بمثابة المحرك الأساسي لكل فعل ثقافي وعلمي، كما كانت تحظى في آن واحد بالاحترام والهيبة، والعمل بكل ما يصدر عن أساتذتها من فتاوى وأحكام وتوجيهات.

ومن المعلوم أن الثقافة كثيرا ما كانت بضائع في رحال التجار، وكثيرا ما كان العالم ينتقل مع قوافل التجارة، أو يمتهن التجارة إلى جانب ما يحمله من علم. لهذا فلا نستبعد أن تكون الحركة التجارية النشطة التي عرفتها أسواق توات، قد واكبتها حركة فكرية، بنفس مستوى النشاط والحيوية التي عرفتها التجارة.

وقد قام علماء وفقهاء توات بنقل ما عندهم من علوم ومعارف إلى مختلف مناطق السودان الغربي وإلى جيرانهم سكان الصحراء.وقد انطلقت في تلك الظروف القاسية رحلات ذاتية كثيرة، لم تساعد في إثرائها وموالاتها دولة أو حكومة، وإنما قام بها – كما سيتضح-مشايخ وفقهاء توات إيمانا واحتسابا، يوحد بينهم ذلك الإحساس العميق والنبيل، ويحدوهم نهم علمي متأجج.

أولا: الوسائل التي ساعدت على انتشار الاسلام والثقافة العربية الإسلامية في افريقيا جنوب الصحراء:

يعود الفضل في انتشار الاسلام والثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي إلى ثلاث وسائل رئيسية، ويأتي في مدرجها الأول: طرق قوافل التجارة العابرة للصحراء، والتجار الوافدين من بلدان المغرب الإسلامي وتنظيماتهم، والدعاة السودانيين، غير أن العامل الأهم والذي ساعد في انتشار الإسلام في تلك المناطق يعود بالأساس إلى الدين الإسلامي نفسه، فهو ذو نظام اجتماعي راق يدعو إلى العدالة والمساواة بين جميع أفراد المجتمع. ولا يقيم وزنا لفوارق اللون أو الطبقة، وإنما الفارقة من خلال ما يفعله العبد من أعمال صالحة، لذلك فإن الدين الإسلامي كثيرا ما يوصف بأنه أكثر الأديان سماحة وعدالة اجتماعية.

ومنذ اكتمال مراحل التعريب وانتشار الدين الإسلامي في مناطق بلاد المغارب في القرن الثاني الهجري/الثامن للميلاد، بدأت القبائل الأمازيغية والعربية تتجه نحو الصحراء جنوبا، حتى وصلت إلى بلاد السودان. ولم تقف الصحراء حينها عائقا دون استمرار تواصل الروابط والصلات المتعددة؛ فقد كانت طرق ما وراء الصحراء ومسالكها ومنافذها من العوامل الهامة التي ساعدت على تدفق المؤثرات العربية الإسلامية إلى مناطق السودان الغربي.

وبدأت رقعة الإسلام في حالة انتشار مستمر، لا سيما بعد سقوط دولة غانا الوثنية على أيدي المرابطين في عام571هـ/ 1076م. ونجم عن ذلك، قيام ممالك افريقية إسلامية، بلغت تقدما حضاريا ملحوظا نتيجة اعتناقها الإسلام[1].

ومثلما كانت طرق القوافل التجارية شريانا للمعادلات التجارية بين مراكز بلاد المغارب وبلاد السودان الغربي، فقد ظلت-في الوقت نفسه-إشعاعا للمؤثرات الثقافية، حيث أصبحت المحطات المنتشرة على طول طرق القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى أماكن لاحتكاك الأفكار تأثيرا وتأثرا، وذلك بفضل ما تقدمه للمسافرين، من مأوى وسبل الراحة والاستجمام. كما ازدهرت المراكز الهامة في السودان الغربي من الناحيتين الاقتصادية والثقافية. ومن أشهرها: جاو، وجنّي، وأروان، وتمبكتو.

وإلى جانب انتعاش المجالات الاقتصادية، فقد أدت بعض الحواضر العلمية في بلاد المغارب، مثل طرابلس، وتلمسان، وفاس دورا بارزا في نشر الإسلام والثقافة العربية في السودان الغربي. ولا يجب أن يغيب عن أذهاننا، بأن إقليم توات كان على اتصال بشعوب شمال أفريقيا وغربها، وذلك بحكم موقعه ونشاطه

1.أرنولد توماس: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين وآخرين، مكتبة النهضة العربية، القاهرة 1970م، ص 391.

التجاري مع أسواق المنطقتين. الأمر الذي لفت نظر الباحثين إلى ظاهرة صلة التجارة بانتشار الإسلام في تلك المناطق.

وقد كان التاجر المسلم داعية لدينه، يجمع بين نشر الدعوة الإسلامية وبيع سلعته، فالتجارة من طبيعتها أن تصل التاجر بصلة وثيقة بمن يتعامل معهم، خاصة وإن كان يتحلى بالصدق والأمانة والخلق الحسن، وهذه المثل الأخلاقية السامية كثيرا ما تتوفر لدى التاجر المسلم الذي سرعان ما يلفت إليه الأنظار عند دخوله لقرية وثنية، وذلك لكثرة وضوئه ونظافته وانتظام أوقات صلاته وعبادته. وقد جعلته هذه الصفات الحميدة بالإضافة إلى نظافة البدن والملبس أهلا لثقة سكان بلاد السودان الوثنيين وقدوة حسنة للإقتداء به وتقليده[1].

والجدير بالذكر، أن دور التجار المسلمين الأمازيغ أو العرب، لم يقتصر على مجالات التجارة والأنشطة الإقتصادية فحسب، بل تعداه إلى الدعوة إلى نشر تعاليم الدين الإسلامي، وتعميق الصلات الثقافية، وتمثل ذلك في نشر اللغة العربية، وبناء المساجد والمدارس لتعليم القرآن. وهكذا، أضحى التجار العرب والأمازيغ، يقومون بمهمة الدعاة المسلمين، إلى جانب

[1] - حسن يوسف فضل: الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، العرب وإفريقيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت1984م، ص 39.

نشاطهم التجاري، فحملوا معهم العقيدة الإسلامية والحضارة العربية.

وكان من نتائج احتكاكهم واختلاطهم بالسودانيين؛ أن حدث التزاوج والمصاهرة وانتشار الدين الإسلامي تدريجيا وسلميا في تلك المناطق[1].

فالدعاة، سواء أكانوا من المسلمين الوافدين من بلاد المغارب، أم من حواضر افريقيا جنوب الصحراء (بلاد السودان الغربي)، كانوا يعتبرون وسيلة من الوسائل التي ساعدت على ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، كما كانوا يدعون الناس إلى الإسلام، ويفقهونهم في أمور دينهم، وذلك لإلمامهم بأصول الدين والشريعة الإسلامية ومبادئها السامية. ولهذا حظي هؤلاء الدعاة بتقدير الأهالي لهم، إذ أصبحت كثير من قرى ومدن بلاد السودان الغربي تضم دارا لاستقبال هؤلاء المعلمين الفقهاء الذين كانوا يعاملون بأعظم مظاهر الاحترام[2].

ويلاحظ أن معظم أولئك المشايخ المعلمين، قد درسوا في المراكز الثقافية في بلاد المغارب، كالحواضر العلمية في توات، وتلمسان، وفاس، وغيرها، وتأهلوا

---

[1] - حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة1963، ص 213.

[2] - المرجع نفسه، ص 214.ينظر أيضا: عبد المجيد مزيان: "طريق الذهب وطريق الثقافة"، في مجلة الأصالة، العدد الثالث، (الجزائر، أوت1971)، ص 15-20.

ردمد 1112-4237 الإيداع القانوني Depot légal868-2003

للدعوة الإسلامية بين سكان بلاد السودان والتأثير فيهم.[1]

وقد وجد الدعاة تشجيعا كبيرا من قبل حكام أقاليم بلاد السودان الغربي، وفي ظل هذا التشجيع، بدأ الدعاة والفقهاء والمحسنون في تأسيس المدارس والزوايا، التي كانت قبلة لأبناء المسلمين والوثنيين على حد سواء دون تمييز، الأمر الذي أدى إلى انتشار الإسلام والثقافة العربية بنجاح باهر بين أهالي السودان الغربي[2]، وأصبحت هذه المدارس والزوايا تتكاثر وتزدهر، حتى أن بعضها أضحى مركز إشعاع حضاري يستقطب أبناء تلك المناطق؛ دون اعتبار لفارق الدين أو اللون.

وتجلت مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في مملكة سنغاي، خصوصا في عهد الأسقيا محمد الكبير وخلفائه، وترتب عليها تكوين حكومة ونظم إدارية متقدمة[3]، بحيث انتقلت منها حياة المجتمعات القبلية المتفككة إلى مجتمع الدولة المركزية، وحدث الإمتزاج

1 -حميد دولاب ضيدان: الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، ط1، منشورات مركز البحوث والدراسات الإفريقية-سبها، ليبيا 1993م، ص 115-116.

2 -قاسم جمال زكريا: الروابط العربية الإفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية، العلاقات العربية الإفريقية، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار، (م.ع. ت. ث. ع) القاهرة، 1977م، ص40.

3- محمود حسن أحمد: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ج1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963م، ص261.

الكامل بين النظم العربية الإسلامية وبين الأنماط الإفريقية المحلية، وتكون عنصر جديد يوائم بين ما غرسه الإسلام من ثقافة عربية، وبين بعض الموروث من التقاليد والأنماط الإفريقية؛ أي برزت الشخصية الإفريقية في إطار إسلامي[1].

والمعروف أن حكام الممالك الإسلامية الإفريقية وسلاطينها، قد درجوا على الخروج إلى الحج في مواكب حافلة، تضم أعدادا كبيرة من سكان بلاد السودان، وقد أسهمت هذه الرحلات في توطيد العلاقات التجارية والثقافية بين الممالك الإفريقية وبين بلدان المغارب، ومصر، والحجاز، كما ساعدت في التعريف بتلك الممالك. ونتيجة لذلك، توافد إليها التجار والعلماء والفقهاء، من شتى بلدان العالم العربي والإسلامي.

- دور اللغة العربية في التواصل الثقافي بين بلاد المغارب وإفريقيا جنوب الصحراء:

لقد ساعد انتشار الإسلام في غرب إفريقيا على انتشار اللغة العربية، إذ صارت لغة التخاطب والتجارة. وقد تم تطور العلاقات الثقافية بين السودانيين وسكان الشمال الإفريقي؛ نتيجة انتشار

1 -عمار هلال: "مواقف الاحتلال الفرنسي من اللغة العربية في إفريقيا السوداء"، في مجلة الثقافة، عدد60، الجزائر، 1980م، ص52.

ردمد 1112-4237 الإيداع القانوني Depot légal868-2003

الإسلام في جو يسوده التعاون الحر فيما بينهما. وفي تلك الظروف سافر كثير من الأفارقة ولاسيما السودانيين إلى مراكز الإشعاع الإسلامي في بلاد المغرب للإستزاده من العلم.

وقد يكون العامل الديني وحده ليس كافيا في تعليل انتشار اللغة العربية في إفريقيا السمراء، بل هذا الانتشار يمكن تعليله بعوامل كثيرة متظافرة ومكملة لبعضها البعض.

ويأتي على رأس هذه العوامل التي ساعدت العربية على الانتشار في القارة السمراء، عدم جواز ترجمة القرآن وكتابته بغير اللغة التي نزل بها، فضلا عن عدم جواز القراءة بغير العربية في الصلاة[1].

ويُعلل بعض الباحثين انتشار العربية في إفريقيا السمراء بالقرابة التي توجد بينها وبين اللغات السامية الأخرى في كثير من المظاهر الصوتية واللفظية والنحوية. زيادة على ذلك هناك إجماع بين علماء اللغات على التشابه الموجود بين اللغات السامية والحامية[2].

لقد شكلت الصلات التجارية بين سكان بلاد المغرب الكبير وسكان بلاد السودان البدايات الأولى

1.-المرجع نفسه، ص52.

[2] -حميد دولاب ضيدان: مرجع سابق، ص124. نعيم قداح، حضارة الإسلام...، مرجع سابق، ص164

ردمد 1112-4237 الإيداع القانوني Depot légal868-2003

لانتشار اللغة العربية في إفريقيا جنوب الصحراء، فالتجارة بطبيعة الحال من الضروري أن تلازمها لغة التخاطب بين البائع والمشتري، وشكلت أداة للصلة والتفاهم وتوطيد العلاقة بينهما. وبما أن اللغة العربية كانت أرقى اللغات المحلية، فمن الطبيعي أن يلتقطها التجار والأهالي ومن يحيط بهم من إخوانهم التجار وينشرونها فيما بينهم. وهذه العلاقة التجارية، هي التي وضعت حجر الأساس للغة العربية في إفريقيا، وبدأ أولئك التجار الأفارقة يدخلون كلمات وتعابير عربية في تلك المناطق، فانتشرت تلك الكلمات والتعابير تدريجيا، حتى توغلت في أغلب ربوع القارة الإفريقية، واندمج بعضها في اللغات المحلية، وخاصة مثل لغة الهوسا والفلان[1].

وتجلى ذلك في أسماء تلك البضائع التي كانت تصدر إليها من بلدان المغارب في العصور القديمة، هذا فضلا عن الكلمات والتعابير الإسلامية التي دخلت بدخول الإسلام للقارة الإفريقية. فنجد في لغة الهوسا مثلا، أن أسماء هذه البضائع عربية. فكلمة السرج، والحرير، والزعفران، واللجام، والقلم، والداوة،

[1] - السر سيد أحمد العراقي: "انتشار اللغة العربية في بلاد غربي إفريقيا عبر التاريخ "، في مجلة الدراسات العربية الإفريقية، العدد الأول، جامعة الخرطوم 1985م، ص ص 102-103

ردمد 1112-4237 الإيداع القانوني Depot légal868-2003

وأمثالها كلها وافدة على لغة الهوسا، وتنطق بتحريف بسيط[1].

لقد انتشرت اللغة العربية في إفريقيا بشكل واسع النطاق، حيث أصبحت لغة العبادة والعلم والتجارة والدبلوماسية. وهي في الوقت ذاته تعد الرابط الأساسي بعد الدين الإسلامي الذي يربط بين العالم الإسلامي ككل؛ بما فيه إفريقيا الإسلامية، لذلك فلا غرابة، إذا كان انتشار هذه اللغة كبيرا في إفريقيا جنوب الصحراء.

كما قامت الكتاتيب، إلى جانب المساجد والزوايا بتعليم وتحفيظ القرآن والكتابة. ويؤكد أغلب المؤرخين على أنه في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، انتشرت الثقافة العربية في بلاد السودان، وأصبحت اللغة العربية لغة التخاطب في المراسلات الرسمية للدول إفريقيا الإسلامية، بالإضافة إلى كونها اللغة المستعملة في التجارة[2].

يقول أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام في معرض حديثه عن أهمية اللغة العربية وسعة الانتشار الذي حققته في إفريقيا جنوب الصحراء، وما قدمته

1 -قمر الدين فضل الله: "لمحة تاريخية عن مملكة سنغاي الإسلامية 1468-1951م"، في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد4، طرابلس 1987م، ص ص 211- 227. وانظر أيضا: نعيم قداح: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1975م، ص150.

2 -سير توماس وارنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص398.

من تطور للثقافة الإفريقية: " وبلغت اللغة العربية وهي اللغة التي تكتب بها دائما الكتب الدينية الإسلامية حدا يفوق كل وصف من الفن والجمال وإذا ما تعلم الإفريقيون هذه اللغة أصبحت لغة التخاطب بين أهالي نصف هذه القارة، وتستخدم كمقدمة لدراسة الأدب، بل هي أدب في ذاتها، وهي بالإضافة إلى ذلك لغة شريعة وقانون مكتوبة حلت محل نزوات شيخ القبيلة الإستبدادية، وهذا يعتبر في حد ذاته تقدما في الحضارة"[1].

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار لغة القرآن الكريم في إفريقيا جنوب الصحراء، هي هجرة القبائل العربية والأمازيغية إلى المناطق المختلفة من بلاد السودان واستقرارها فيها. ولعل من أهم القبائل التي مارست الهجرة على نطاق واسع بغرب إفريقيا، هما قبيلتا زناتة وصنهاجة (بمختلف فروعها)، اللتان تسببتا في تقلص الممالك الوثنية العديدة، التي أقامها الأفارقة على حافات الصحراء الجنوبية.

وتحت تأثير هجرة القبائل العربية، تعربت عناصر عدة من سكان الصحراء الأصليين، بل ومن القبائل البربرية المهاجرة أيضا[2]. وهذه الهجرات واغلة

1 -إسماعيل العربي: "مسالك الإسلام والعربية إلى الصحراء الكبرى"، في مجلة الثقافة، عدد 62، الجزائر 1981م، ص44.

2- حميد دولاب ضيدان: مرجع سابق، ص127.

في القدم، وقد اتسعت بانتشار الإسلام في القارة الإفريقية.

ثم إن عملية الاندماج والانصهار العرقي من خلال تزاوج العرب والبربر الوافدون مع القبائل الإفريقية؛ ساعد على انتشار اللغة العربية بنجاح كبير في المناطق التي وفدوها[1]. وأدى ذلك الاختلاط؛ ليس فقط إلى نشر العربية فحسب، وإنما إلى التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي لتلك الشعوب التي اختلطوا بها. ولم تقف وعورة الصحراء وبعد المسافات حاجزا دون ذلك الاختلاط. لأن التاجر المسلم كثيرا ما ينتهي به الأمر إلى الاستقرار في ربوع الصحراء، أو على ضفافها الجنوبية، فيتزوج هناك ويصبح بفضل المبادئ الجديدة التي يحملها وبفضل ثروته أيضا نواة للحياة الإجتماعية في الوسط الذي أصبح واحدا من أبنائه، كما حدث مثلا لأعلام قبيلة كنته، الذين ارتحل الكثير منهم من إقليم توات واستقر بهم المقام في إقليم الأزواد وعلى ضفاف حوض نهر النيجر.

وكانت جميع أنواع المعارف تدرس وتستوعب وتناقش بواسطة اللغة العربية، التي أصبحت لغة

1 -محمد جلال عباس: "اللغة العربية في إفريقيا"، في مجلة الدارة، السنة 9، العدد 10، الرياض، 1983م، ص180.

الكتابة الرسمية والثقافة على حد سواء[1]، غير أن طريقة التدريس للعامة في المساجد، كانت تستعمل فيه اللهجات المحلية بعد صلاة الجمعة والأعياد. أما دروس الوعظ، فكان القائم بها يتلو آيات وأحاديث، ثم يفسرها للناس بلهجاتهم ليفهموها، وظلت هذه العادة مستمرة في بلاد السودان الغربي.

إلى جانب ذلك، فقد كثرت الخزائن العامة والخاصة في حواضر إفريقيا جنوب الصحراء، وكانت في متناول طلبة العلم، وعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد أن مدينة تمبكتو اشتهرت بعدد كبير من المكتبات الخطية الخاصة، التي كان يمتلكها أسر وأفراد من العلماء، حيث أنها تمثل الرصيد الحقيقي من التراث الإسلامي والعربي في هذه البقاع، وتحتوي هذه الخزائن على نفائس ونوادر الكتب، كمكتبة أسرة أبي الأعراف في تمبكتو وغيرها.

وخلاصة القول، أن اللغة العربية انتشرت بانتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، وقد أدى العلماء والتجار التواتيين دورا بارزا في تعميم استعمالها، وذلك بفضل نشاط القوافل التجارية، والزوايا والطرق الصوفية، التي يعود لها الفضل الكبير في تحقيق التعريب في السودان الغربي، وفي بث

1 -عبد الحميد الهرامة: "تنبكتو نافذة على التاريخ والتراث الإسلامي"، في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد04، طرابلس1987، م، ص 230.

معارفها بين الناس.وقد اقتضت الضرورة بأنه على كل فرد إفريقي وثني دخل الإسلام، أن يتعلم؛ ولو قسطا زهيدا من لغة القرآن لتأدية فرائضه الدينية. ومن ثمة توطدت أركان العربية في إفريقيا جنوب الصحراء تدريجيا، إلى أن بلغت أوج انتشارها بنهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[1].

ثانيا: اسهامات أعلام توات في الميدان العلمي والتجاري:

أ-في الميدان العلمي:

لقد أسهم علماء ومشايخ توات في تدعيم الإشعاع العلمي والثقافي الذي شهدته الحواضر العلمية الواقعة بإفريقيا جنوب الصحراء، وذلك منذ القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد وبشكل ملحوظ، وقد سجّله أغلب المؤرخون العرب والاجانب.

ففي الميدان العلمي، نجد نسبة كبيرة من بين أولئك العلماء الأجلاء الذين خصص لهم عالم التكرور أحمد بابا التمبكتي (ت 1032هـ/1642م) كتابه المشهور "نيل الابتهاج"، حيث خصّ عدد من التواتيين الذين انتقلوا إلى بلاد السودان الغربي للاستزادة والإفادة، وقد ألف أحمد بابا كتابه هذا تكملة لكتاب ابن فرحون في تراجم فقهاء المالكية الكبار، وكان من بين

1. -عمارهلال: مرجع سابق، ص52.

من ذكرهم عددا هاما جدا من التواتيين[1] وجاء بعد أحمد بابا مؤرخ السودان الكبير عبد الرحمان السعدي (ت 1066هـ/1655م)؛ فنقل لنا صورة لامعة عن إسهامات علماء إقليم توات ورجالاته في الثقافة العربية الإسلامية ونقلها إلى بلاد السودان[2].

ثم ألف القاضي "محمود كعت" في التاريخ "الفتاش"، فأعطانا رؤية شديدة الوضوح والتألق عن دور علماء توات في كل الحواضر العلمية في بلاد السودان الغربي والمساجد الحافلة بالطلبة والعلماء في القرون الثلاثة (09-10-11 للهجرة/ 15و16و17للميلاد) أيضًا.

فقد درس هؤلاء وألفوا وأفادوا في تمبكتو، وفي تدمكت، وفي كانو، وفي جني، وفي ولاته، وفي بلاد الكانم على وجه الخصوص[3].

ولم يكن ذلك من فراغ، لأن علماء توات إلى جانب جهود إخوانهم من بلاد المغارب، قاموا بدور بارز في تأمين التواصل المعرفي وتغذيته باستمرار، وكان لهم شرف المساهمة في تعميق الصلات الحضارية بين بلاد المغرب الكبير وإفريقيا السمراء، حيث استقروا في بلاد

1-أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد هرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس1989م.

2 -عبد الرحمان السعدي: تاريخ السودان، نشر هوادس، ط1، باريس 1964م.

3 -محمود كعت التنبكتي: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، طبعة هوادس، باريس، 1964م.

السودان الغربي وسهّلوا التبادل، وواكبوه وغذوه بمختلف الروافد المعرفية؛ سواء منها التدريس، ونقل الكتب والمخطوطات والعلماء. فهذا كله، قد حفز أهمية التحرك الفكري والثقافي المتبادل، ولذلك اصطبغت الثقافة السودانية في بلاد السودان الغربي بالصبغة المغاربية في أغلب مظاهرها الثقافية.

ومن تلك المظاهر، نجد أن جماعة من أعلام قبيلة كنتة، قد انتقلوا من إقليم توات في نهاية القرن السابع عشر للميلاد إلى إقليم الأزواد، الواقع إلى الشمال من تمبكتو الحالية وأسّسوا فرعا لزاويتهم القادرية[1]. وكان من أبرزهم: الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي (ت1226ه/1811م)، صاحب المؤلفات الكثيرة والشهيرة في الفقه والأذكار واللغة والتصوف، وابنه الشيخ سيدي محمد (ت1242ه /1826م)، وحفيده الشيخ سيدي أحمد البكاي (ت1282هـ

1- أبي عبد الله الطالب البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي ،دار الغرب الإسلامي، بيروت،1981م ، ص15 (مقدمة المحقق).ويذكر الباحث الأكاديمي المتخصص في تاريخ إفريقيا ماوراء الصحراء في معرض حديثه عن قبيلة كنته، فيقول:" وقد هاجرت هذه الجماعات من منطقة توات في القرن الخامس عشر الميلادي، ووصلوا إلى حدود تمبكتو...ثم تطورت هذه القبيلة من نواة عربية الى قبيلة مغربية دينية كانت الأساس في نشر الطريقة القادرية في غرب إفريقيا ..لأنها كسبت شهرة دينية جعلت الكثيرين ينتمون اليها، وصارت الوسيط بين القوى المتصارعة من الطوارق والفلان والزنوج في منطقة تمبكتو" . عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، مكتبة مدبولي، القاهرة(د.ت)، ص 37.

/1865م)، وقد قام هؤلاء جميعا بدور رائد ومشهود في نشر الإسلام بين قبائل الطوارق وبعض القبائل الإفريقية الوثنية[1].

ومن أبرز أعلام الزاوية الكنتية بتوات، الشيخ سيد علي بن أحمد الرقادي (ت1120ه /1708م)، ومن تلامذته البارزين الشيخ محمد المصطفى بن الشيخ سيدي عبد المؤمن بن الشيخ سيدي أحمد الرقادي، حيث يذكر عنه أنه نشأ وتربى في الزاوية الكنتية، ومات بها بعد طول الأسفار وكثرة التجوال. وكان له تلاميذ من بلاد السودان الغربي، ومن بعض مدن وقرى المغرب الأقصى، وغيره من الأقاليم الأخرى[2]

ومن الذين تولوا أمر الزاوية الكنتية ومشيختها الشيخ سيدي علي ابن أحمد الصوفي، الذي ولد بزاوية كنته سنة 1140هـ/1728م، وقرأ القرآن وتعلم ما تيسر من علوم العقيدة والفقه والنحو والصرف عن جده الشيخ سيدي محمد، ثم عن أبيه من بعده. و يذكر عنه أنه كان ذا إلماما بعلوم الحديث وعلوم القرآن.حيث عرف بالحفظ والفهم، وقال فيه الشيخ

1 -محمد حوتية: توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة/18-19م، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر2007م، ص289.

2- الشيخ سيدي الحاج أمحمد الكنتي: حول" الزاوية الرقادية الكنتية وأعلامها، محاضرة ضمن أعمال الملتقى الثاني حول دور آل كنتة في نشر الثقافة الإسلامية، زاوية كنتة أدرار في 20ماي 2004، ص26. (عمل غير منشور).

سيد المختار الرقادي:" كان يحفظ أزيد من ثلاثمائة ألف حديث"[1]. وكان يلّقب بـ: علي الأصغر، وترعرع تحت كفالة أبيه، حيث كان تلميذ بأمر من أبيه عند ابن عمه، الشيخ سيد الحاج بن محمد المصطفى بن سيدي عبد المؤمن الرقادي، هذا الأخير الذي يُعد بحق من أساطين العلم بالزاوية الرقادية الكنتية. وقد أجازه شيخه في التفسير والحديث وعلم الأصول وعلم البلاغة. وكان ذا جلالة ومهابة، قال فيه صاحب كتاب (فتح الشكور):"كان رحمه الله من عباد الله الصالحين، والأولياء العارفين، أرباب الأحوال، من الذاكرين الله كثيرا"[2]. وقد مكث في آخر حياته معتزلا بالزاوية في خلوة جده لأبيه، حتى توفي بها يوم عيد الأضحى في ليلة الجمعة عام 1240هـ/1824هـ كما قيده الشيخ سيد المختار القاضي[3]. وآخر خلفاء الزاوية الكنتية، هو الشيخ سيد المختار الذي تولى أمر الزاوية للتعليم والإفتاء والقضاء. وعرف عنه حينها بالجدية والحزم، حيث يذكر عنه أنه كان قاضي القطع والتحقيق بالزاوية الكنتية، التي ولد بها عام 1211هـ/1797م.

وبعد أن أتم تعليمه الابتدائي، سافر به والده إلى بلاد السودان الغربي (أرض مالي)، أين كان والده

1 -المرجع نفسه، ص27.

2 -أبي عبد الله الطالب البرتلي: فتح الشكور ...، مرجع سابق، ص 200.

3 -وقد ذكر صاحب فتح الشكور أنه توفي رحمه الله تعالى عام 1194هـ/1780م.

ردمد 1112-4237 الإيداع القانوني Depot légal868-2003

معروفا بتلك النواحي، وله الاتصال الكامل بخيارها وأهل الصلاح فيها، واقام به في الحُلل الكنتية[1]. وكان له الفضل أن تتلمذ على يد مشايخ كانوا من أهل العلم والمعرفة، نذكر منهم الشيخ سيدي عمر بن علي المختاري؛ هذا الاخير الذي تتلمذ على يده الشيخ سيد المختار، وأخذ عنه علوم الحديث ومصطلحاته وعلوم القرآن للسيوطي، وقد لقنه الأوراد القادرية، وأجازه في الطريقة الكنتية القادرية، ومكث بأرض الأزواد مدرسا ومفتيا وإماما بخيم الرقاقدة بأرض تقانت. وبعد موت الشيخ سيدي عمر (ت 1278هـ/1861م)، عاد سيد المختار إلى الزاوية الكنتية التواتية بدعوة من أهل الحل والعقد من جماعة الرقاقدة وجماعة الأشراف، حين لم يبق بالزاوية عالما يشار إليه بالبنان. ولما استقر الشيخ سيد المختار بالزاوية بعد طول الغيبة عنها، طلبوا منه أن يُعلم في مسجد أجداده ويُحي ما يدرس من العلوم به[2].

وقد تولّى منصب القضاء لمدّة تقارب عشرين سنة، وكان يختم في وثائقه بقوله: "المختار بن محمد

1 -الحلة على مائة خيمة، وفي اصطلاح الكنتيين هي مجموعة سكنية تتألف من مسجد للصلاة ومكان للتدريس وقد عرف بني الكنتي بكثرة وتعدد الحلة في صحراء أزواد بأرض دولة مالي، والتي ساهمت في تفعيل الروابط التجارية والثقافية.

2 -الشيخ سيدي الحاج أمحمد الكنتي: المرجع السابق، ص32.

ردمد 1112-4237 الإيداع القانوني 868-2003 Depot légal

مصطفى الرقادي قاضي القطع والتحقيق"[1]. وقد انتشر عنه من العلم مالم ينتشر عن أحد من أسلافه بعد جده الشيخ سيد علي بن أحمد، حيث كان خير قائم بالزاوية في التعليم والتربية وإكرام النازلين، والسهر على مصالح طلبة العلم والقيام بشؤونهم.

وإذا كان الكتّاب والباحثون قد اعتادوا الإشادة بالمؤسسات التعليمية الكبرى في إفريقيا جنوب الصحراء، مثل جامعة تمبكتو وغيرها من المعاهد العالية، فإن ما يؤخذ عليهم أنهم ينسون تلك المدارس الصغرى المستقرة والمتنقلة (الحلة) التي كانت هي الأساس في مد تلك الجامعات بالطلبة.

إن الفضل في كل ذلك يعود إلى هاته المؤسسات الشعبية البسيطة، التي كانت تحمل على ظهور الجمال، وتارة تحت سقف سعف النخيل في مدرسة القرية، ومن أشهر الحلات التي أسهمت في نشر التعليم جنوب الصحراء الحلل الكنتية.

وقد أدّى اعلام ومشايخ قبيلة كنته دور الوسيط فيما بين ضفتي الصحراء خلال العصر الحديث، خاصة فيما بين واحات توات، حيث منطلق الزاوية الكنتية الأول (الجزائر حاليا)، وإقليم الأزواد

1 -المرجع نفسه، ص32.

(شمال مالي حاليا)؛ حيث مركزها القيادي الثاني في صحراء مالي.

ويبدو أن مدينة تمبكتو كانت الحاضنة لهذا النفوذ، ثم مركزا أساسيا لانطلاق الدور الكنتي في عموم الصحراء، وبلاد السودان، خاصة في مراحله الأخيرة قبيل الغزو الفرنسي للمنطقة.

وصفوة القول، فإن الزوايا الكنتية القادرية، تعتبر بحق إحدى أهم قنوات التواصل الروحي بين شمال بلاد المغارب وإفريقيا جنوب الصحراء، كما شكلت في الوقت ذاته نموذجا للدعوة والإرشاد بإفريقيا وأجزاء عديدة من بلاد المغارب.

ب-في الميدان التجاري:

استمد اقليم توات أهمية اقتصادية كبيرة من موقعه الاستراتيجي الممتاز، كنقطة التقاء للعديد من المسالك الصحراوية الرابطة للتجارة بين شمال الصحراء وجنوبها. ولعل هذا الذي أهّله لأن تكون مدنه أسواقا كبرى ومستودعا للبضائع الواردة من الشمال أو من افريقيا جنوب الصحراء.

وقد كانت تجارة القوافل العابرة للصحراء التي برع فيها أهل توات، ذات أهمية اقتصادية كبرى لممالك إفريقيا الإسلامية وسكانها، ولهذا نجد أمير بورنو على ما يذكره الرحالة الإيطالي مالفانت الذي زار توات خصيصا في سنة 1447م، أي في منتصف القرن

ردمد 1112-4237 الإيداع القانوني 868-2003Depot légal

الخامس عشر للميلاد، حيث كتب رسالة إلى علماء توات، يشكو لهم فيها من قلة توارد قوافل بلدهم على بلده في تلك السنة والتي قبلها ويرجوهم العمل على حث تجار قصورهم كي يبعثوا بتجارتهم إلى بلاده[1].

وبانتشار الإسلام في السودان الغربي، تدعمت العلائق مع بلدان المغرب الكبير، وكانت الإبل وسيلة للنقل المستمر بين جانبي الصحراء الكبرى ودعامة رئيسية لازدهار التجارة في كنف الإسلام، فلم ينل حيوان آخر من الشهرة والأهمية مثلما نالها الجمل، حيث كان مرتبطا بحياة البدو، الذين تمكّنوا من ترويضه واستئناسه.

ومن المسالك التي أصبحت لديها أهمية بارزة في غرب إفريقيا، الطريق الذي يمر بتوات، وينطلق إلى السودان الغربي من شمال غرب افريقيا[2]، كما كوّن أهل توات جالية كبيرة في مدن حوض نهر النيجر؛ كتمبكتو، وجاو وغيرها. نظرا للموقع الاستراتيجي لإقليم توات في طريق القوافل العابرة للصحراء، والتي تقصد أسواقه. لذا حرصت قوافل التجار والمسافرين والحجاج على التوقف بأسواقه، للتزود بما تحتاج إليه من مؤن وماء، كما كانت القوافل أن تستبدل ما

1 -محمد حوتيه: توات والأزواد، مرجع سابق، ص 66-69.

2 عبد القادر زيادية: الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989م، ص 28-29.

ضعف من إبلها وخيلها، بأخرى سليمة لتواصل سيرها الطويل[1].

ويفضل الأمن الذي عم إقليم توات، استطاع سكان القصور التواتية الذين نعموا بخير الأمن أن يبلغوا بتجارتهم حتى تمبكتو، وجاو، جني. كما كان بعض التجار التواتيون يستأجرون الوسطاء للسير ببضائعهم إلى أسواق تمبكتو[2]، وكان غالبية الأدلاء من بعض القبائل العربية؛ كأولاد المختار، وأولاد زنان، ومن القبائل الأمازيغية كالطوارق، الذين اكتسبوا خبرة بمسالك الصحراء الوعرة. وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون عند حديثه عن القوافل المتجهة نحو بلاد السودان، حيث يقول: "... المفازة المجهلة لا يهتدي فيها للسبل، ولايمر الوارد إلا بالدليل الخريت من الملثمين الظواعن بذلك القفر، يستأجره التجار على البذرقة* بهم بأوفى الشروط."[3]

إن قوافل التجار الذين كثيرا ما يكون بينهم الفقهاء والعلماء، تحمل معها إلى جانب السلع والمنتجات أخبارا وأفكارا جديدة عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية السائدة في مختلف أقطار

1 -يحي بو عزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1999م، ص 111-112

2 -فرج محمود فرح: اقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1977، ص 77-78.

3- A.G.P.Martin ; Quatre siècle D'histoire marocaine au sahara(1504-1902),Paris,1923, p114.

ردمد 1112-4237 الإيداع القانوني 868-2003Depot légal

العالم الإسلامي، وماتتمتع به هذه المجتمعات من العدل والنظام وغير ذلك مما يستهوي النفوس المتعطشة إلى هذه الأشياء.

وأهمية التجارة في انتشار الإسلام في الصحراء وفي إفريقيا جنوب الصحراء، لا يمكن للباحث أن يبالغ في تقديرها. والواقع أنه إذا كان المسلمون قد فتحوا معظم المناطق التي تشكل العالم الإسلامي بالجيوش، فهم إنما فتحوا الصحراء بقوافل التجار، وبالتنظيم المحكم الذي توفره الشريعة الإسلامية للمعاملات التجارية.

وبالرغم من المحاولات الأوروبية لتحويل التجارة إلى سواحل إفريقيا الغربية واستخدام الممرات المائية لنهري النيجر والبنيوي، فإن هذه المحاولات باءت بالفشل حتى الربع الأخير من التاسع عشر الميلادي[1]، وهي فترة التكالب الاستعماري على القارة الإفريقية.

وعموما، فإن معظم القرن التاسع عشر للميلاد -باستثناء السنوات الأخيرة -شهد ازدهارا في حركة تجارة القوافل من الشمال والجنوب، وتمخّض عن ذلك أن ظل إقليم توات أحد أهم المراكز التجارية الصحراوية الزاهرة، وذلك بحكم ما تمتع به من موقع جغرافي مميّز، الأمر الذي خلق مناخا مناسبا لالتقاء

1 -عبد الرحمان ابن خلدون: كتاب العبر، ج7، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1959م، ص 118.

الطرق التجارية، وتنشيط الجوانب الاقتصادية المختلفة، ولعل تدفق العناصر السكانية المتنوعة إلى الإقليم، كان له أكبر الأثر على البيئة الاجتماعية والثقافية معا.

ثالثا: -جهود علماء توات في ترسيخ الاسلام بإفريقيا الغربية:

يُعد سكان إقليم توات عبر تاريخهم الطويل، من أنشط الجماعات التي سكنت أقاليم الجنوب الجزائري، بحيث لم يقتصر جُهد سكان الإقليم على النشاط الاقتصادي، بل امتد إلى نواح أخرى، وكما مر بنا، فإن هذه الصحراء رغم صعوبة مسالكها، إلا أن التواتيين، استطاعوا أن يربطوا أسواق شمال بلاد المغارب، باسواق إفريقيا جنوب الصحراء عن طريق قوافلهم الذاهبة والآتية، ومع هذه القوافل اطلع التواتيون عن كثب على التيارات الثقافية والفكرية، التي كانت شائعة عند عرب المشرق والمغرب، وفي نفس الوقت قام فقهاء وعلماء توات بنقل ما عندهم من علوم ومعارف إلى مناطق السودان الغربي وإلى جيرانهم سكان الصحراء، ولم يتحقق كل هذا، إلا عن طريق سفر الكثير من علمائهم وفقهائهم إلى الخارج، بالإضافة إلى استقرار جاليات تواتية بالسودان الغربي بقصد العمل والتجارة[1]. وقد أبدى

1 -عبد الرحمان تشايجي: الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ترجمة علي اعزازي، مراجعة محمد الأسطي، تقديم محمد الطاهر الجزاري: ط2، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس1993م، ص53-57.

أهل السودان الغربي شغفا ورغبة في توسيع مداركهم العلمية، وذلك بالترحال للمراكز الثقافية الهامة في بلاد المغارب، أو في غيرها من حواضر المشرق، خاصة باتجاه مصر وتونس...، وهذا ما مكنهم لأن ينهلوا العلم من تلك الحواضر عند مكوثهم بها. وبعد عودتهم تمكن أغلبهم من أن يتولوا أرفع المناصب[1]، وكان بعض افراد هذه الطبقات المتعلمة في بلاد السودان الغربي، من أئمة ودعاة وقضاة ومعلمين، يّتجهون إلى الحواضر الصحراوية العريقة بالجزائر؛ كتوات، وواد سوف، وورقلة، وتقرت، ووادي ميزاب وغيرها، ليتلقون العلوم الدينية، كالفقه والشريعة وأصول المذهب المالكي، هذا الأخير الذي كان المذهب الرئيسي في بلاد السودان الغربي. ويرجع الفضل في انتشاره وتوطيده هناك، إلى عدّة أسباب، نذكر منها؛ ملاءمة هذا المذهب لطبيعتهم، فهو مذهب عملي يَعتدّ بالواقع ويأخذ بأعراف الناس وعاداتهم، ويناسب بساطتهم في الصحراء دون تكلف أو تعقيد، فهم يميلون إلى البساطة والوضوح، والحرص على التمسك بالدين الإسلامي وأصوله خوفا من الإنزلاق في ماهاوئ الضلالات ومحاربة البدع[2].

ومنذ القرن الخامس عشر للميلاد؛ اعتبر إقليم توات مركزا أماميا لنشر الإسلام بالمدن السودانية الواقعة بالقرب

1 -فرج محمود فرج: المرجع السابق، ص113.

2- عبد الرحمان عبد الله الشيخ: دول الإسلام وحضارته في إفريقيا، دار اللواء، الرياض 1983م، ص5.

من الأطراف الجنوبية للصحراء الجزائرية. ويعتبر الشيخ الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ/1504م)، من أكبر رواد الحركة الإصلاحية في توات وفي ممالك إفريقيا الاسلامية التي تجول بها كثيرا، وعاش فيها زمنا طويلا. ومن الآثار القيمة التي خلفها؛ مسجد "الكرامة" بالنيجر، الذي لا يزال قائما إلى اليوم، وقد كتب على صومعته: "هذا مسجد الكرامة الذي بناه الشيخ المبارك محمد بن عبد الكريم المغيلي من صلاة العشاء إلى مطلع الفجر"[1].

لقد ظل أثر الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي يمتد ويقوى حتى بعد وفاته، في جميع أنحاء بلاد السودان، كما كانت تعاليم أفكاره الإسلامية التي اعتنقها الكنتيون والفلانيون؛ بمثابة خميرة لقيام حركات إصلاحية خلال القرن الثالث عشر للهجرة/ التاسع عشر للميلاد في بلاد السودان الأوسط والغربي؛ أي من السنغال إلى تشاد حاليا. أما في جمهورية مالي الحالية، فقد قامت فيها لوحدها عدّة ممالك ذات صبغة إسلامية بحتة، نذكر منها على سبيل المثال، مملكة ماسنة وسيغو، اللتين أسساهما الشيخ أحمد الفلاني والحاج عمر الفوتي[2].

1 -محمد الجيدي: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في المغرب الإسلامي، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، (د.ت)، ص29-32.

2 -مبخوت بودواية: العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، رسالة دكتوراه في التاريخ، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان،2005/2006م، ص 197-198.

ومن المشايخ والفقهاء التواتيين الذين انطلقوا من توات إلى بلاد السودان الغربي لنشر الإسلام، واللغة العربية، نذكر منهم على سبيل الذكر لا الحصر:[1]

الشيخ سيدي أبو القاسم التواتي(ت935هـ/1528م) ،والطالب سيدي أحمد التواتي بن محمد (ت1188هـ/1774م)، والشيخ أحمد بن الحاج الأمين الملقب بالتواتي الغلاوي (ت1157هـ/1744م) ،والشيخ أبو الأنوار التنلاني (ت1168هـ/1754م)، الذي انتقل لبلاد التكرور، فدرس هناك، وأفتى مدة، ثم عاد إلى صحراء توات، وبنى زاويته بمنطقة تيديكلت[2]،والشيخ محمد بن أبا المزمري رحمه الله، الذي يُعد من أبرز الشخصيات العلمية بتوات، حيث أنه عرف عنه بكثرة أسفاره، فلقد زار بعض الحواضر العلمية بالمغرب الأقصى، واستفاد من أعلامها البارزين، ثم انطلق بعدها نحو بلاد الأزواد ، وزار بعض الحواضر الواقعة في إفريقيا جنوب الصحراء، لاسيما تمبكتو وأروان بغرض الإفادة والاستزادة[3].

1- نعيم قداح: المرجع السابق، ص 119-122، عمار هلال، مساهمة بعض الشخصيات السودانية في نشر الإسلام في غرب إفريقيا السوداء، في مجلة الاصالة، السنة التاسعة، (الجزائر، نوفمبر-ديسمبر 1980م)، ص 96-97. احمد حسن محمود: مرجع سابق، ص 298.

2 -البرتلي: مصدر سابق، ص76 وما يليها.

3- محمد بن عبد الكريم البكراوي التمنطيطي: جوهرة المعاني فيما ثبت لدى من علماء الألف الثاني، مخطوط بالخزانة سيدي أحمد ديدي تمنطيط،أدرار ، ص 09.

ومن الفقهاء الذين كانت لهم جهود معتبرة في نشر الإسلام في بلاد السودان الغربي، نذكر منهم الشيخ سيدي محمد الإداوعلي (ت قبل سنة1198هـ/1783م)، الذي قدم إلى توات من بلاد شنقيط، وكان من فحول الشعراء في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، كما عرف أيضا بكثرة أسفاره، وانتهى به المطاف في أرض تمبكتو؛ أين توفي لها في القرن 12هـ/18م[1].ومن المشايخ البارزين، نذكر الشيخ الحسن بن سعيد البكري (ت1292هـ/1875م)، والشيخ محمد الحسن الفلاني القبلاوي (ت 1352هـ/1933م)، هذا الأخير الذي تعلّقت همته السنية بالترحال بين الحواضر العلمية، ليزداد علما على علمه فطاف طلبا للعلم بالعديد من الفقهاء والمشايخ ما بين طرابلس الغرب(ليبيا) والأزواد، وكانت له علاقة متينة مع العلماء داخل الإقليم وخارجه، خاصة مع آل كنته،مثل الشيخ باي بن عمر والشيخ محمد بن بادي والشيخ محمد بن البكاي، وقد جلس للتدريس والإفتاء بعد أن أجازه الشيخ المختار بن إسماعيل بن وديعة الله السلاوي[2].

1 -أحمد جعفري: محمد بن أبّ المزّمري،1160هـ، حياته وآثاره، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر2004م. محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، ج2، دار هومة، الجزائر2005م.

2 -محمد باي بلعالم: قبيلة فلان في الماضي والحاضر...، دار هومة، الجزائر2005م، ص 33-40.

وهكذا استمر تدفق الفقهاء التواتيين كغيرهم من علماء بلدان المغرب الكبير باتجاه تمبكتو حتى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد. وكان دورهم عظيما في نقل حضارة العالم الإسلامي إلى مناطق السودان الغربي الوثنية، ويرجع لهم الفضل أيضا في استمرار إمداد هذه المناطق البعيدة بالفقهاء والأساتذة الذين أسهموا في تغذية الشعوب الإسلامية المتعطشة هناك للثقافة والأفكار الإسلامية. وجعلوا من زواياهم مدارس هداية للإسلام، ومنار علم ومعرفة ومقصد المريدين وطلاب العلم من أبناء القبائل الافريقية المتعددة.

كما تعتبر الرحلة من أهم روافد التواصل العلمي بين توات وبلاد السودان الغربي، حيث كان يتم فيها احتكاك وتبادل العلوم والمعارف ومنح الإجازات العلمية. وإذا كان ركب الحج يُشكّل فرصة للالتقاء، فقد كان إقليم توات إحدى المحطات الرئيسة لاجتماع الحجاج الوافدين من بلاد السودان الغربي بغيرهم من حجاج توات، ليُشكّل بعد ذلك ركب واحد يضم علماء أجلاء، وهي فرصة لطلبة العلم للأخذ والاستزادة، وفضاء واسع لاحتكاك العلماء فيما بينهم.

إنّ أهم ما يشد انتباه الباحث ظاهرتان بارزتان:

الأولى: أن هؤلاء العلماء التواتيين الراحلين إلى بلاد التكرور أو الحواضر الاسلامية الافريقية من أجل التحصيل كانوا من الكثرة بالمقدار الذي يتعذر على الباحث تتبعه واستقصاؤه.

الأخرى: أن رحلات هؤلاء التواقين إلى التحصيل، لم تكن محصورة في منطقة واحدة معينة أو رقعة محدودة، بل انطلقت من ذلك الإحساس الضاغط – في تلك الأزمان-من الواحات والصحاري والمدن والقرى التواتية المختلفة.

وفي كلتا الظاهرتين تجسيم حقيقي للإحساس الكامن المستكن الذي كان يسكن أعماق أولئك الراحلين، وشعورهم-على الرغم من ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية البائسة-بفضل العلم، ووجوب السعي إلى تلقيه وتبليغه، وتجسيد حي لأسلوب ذلك الجيل العصامي الرائد للخروج العلمي ببلادهم من ظلمات الجهل والتخلف إلى ما يرجونه من نور المعرفة والعلم والرقي.

ولم تكن العلاقات التجارية الواسعة التي ربطت السودان الغربي بالأسواق التجارية في إقليم توات، لتمر دون أن تخلق آثارا ثقافية، يمكن التعليق عليها بأنها كانت عميقة ومهمة، عمق وأهمية تلك التجارة التي كانت الوسيلة في وصول التواتيين إلى تلك البلاد النائية.ولم تكن كلمة تاجر تختص بالسلع فحسب، بل كان لها مفهوم واسع، فكان التاجر غالبا من العلماء.

ولما كان هؤلاء التجار من العرب والبربر المسلمين، قد حملوا معهم الثقافة الإسلامية، فكانوا

مبشّرين لتلك الثقافة في بلاد السودان الغربي[1]، وكانت مدينة تمبكتو في طليعة المراكز الثقافية في بلاد السودان، كما كان لها أثر قوي في تقدم الإسلام[2].فتمبكتو مدينة إسلامية عريقة، منذ نشأتها «. مادنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والزاهدين وملتقى الفلك والسيار فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم إلى أن صارت مسلكا للسالكين في ذهابهم ورجوعهم"[3].

وهذه المعلومة تبيّن لنا مدى ما كانت تتمتع به حاضرة تمبكتو من اهمية، حيث ازدادت إشعاعا وتألقا لما توافد عليها لفيف من العلماء التواتيين وغيرهم. وكان دورها الثقافي بالنسبة لأهالي إفريقيا جنوب الصحراء شبيه بما قامت به بعض الحواضر الثقافية؛ نذكر منها على سبيل المثال: تمنطيط، وزاوية كنته بتوات، وطرابلس الغرب بليبيا، وفاس بالمغرب الأقصى، من خدمة جليلة للإسلام والمسلمين في تلك المناطق.

1- أحمد جعفري: الحركة الأدبية في أقاليم توات من القرن السابع حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجريين، ط 1، منشورات الحضارة، الجزائر،2009م، ج01، ص57.

2 -يحي بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية، ص 15-16.

3 -عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث، ط2، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1967م، ص 42.

لقد جسّدت مدينة تمبكتو النموذج الأكمل لتعايش وانصهار مختلف الأجناس والأعراق، والقوميات في بوتقة الحضارة الاسلامية في أرقى الصور، وأجمل المعاني في منطقة جنوب الصحراء وحوض النيجر الأوسط، وكانت بمثابة القنطرة أو الجسر المتين الذي عبره الاسلام إلى دواخل (بلاد السودان الغربي) إفريقيا جنوب الصحراء.

ويمثل ما أنتجته عقول أولئك العلماء من ثمرات فكرية وعلمية وأدبية، تراثا ثقافيا، وحضاريا مازالت تزخر به خزائن المدينة ومساجدها وزواياها العتيقة، وهو بلا شك خير شاهد، وأعظم برهان على الدور الايجابي، والبناء الذي انجزه أعلام توات إلى جانب اخوانهم من المغاربة هناك.

ومن الآثار الثقافية التي خلفتها عملية التواصل بين بلاد السودان الغربي وإقليم توات، يتمثل في تداول الكتب المخطوطة بين علماء الإقليمين، سواء عن طريق التأليف أو النسخ أو الاقتناء[1]، وبذلك انتشرت المخطوطات التواتية في خزائن حواضر بلاد السودان لعديد المؤلفين كالشيخ المغيلي، والزجلاوي، وابن ابا المزمري، وغيرهم. كما تحتفظ الخزائن التواتية بالعديد من الإسهامات العلمية المدونة في تآليفهم لعلماء

1 -عبد الرحمان السعدي: مصدر سابق، ص 21.

سودانيين، كالشيخ أحمد بابا التنبكتي، وكتب أخرى لأعلام بعض الأسر العلمية لقبيلتي كنته وفلان[1].

قائمة المصادر و المراجع:

أولا: الكتب

1.أبي عبد الله الطالب البرناني: **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي ،دار الغرب الإسلامي، بيروت،1981م

2.أحمد بابا التنبكتي: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم عبد الحميد هرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس1989م.

2.**أحمد جعفري**: **الحركة الادبية في أقاليم توات من القرن السابع حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجريين، ط 1**، منشورات الحضارة، الجزائر،2009م، ج01

3.**احمد جعفري**: **محمد بن أبي المزمري،1160هـ، حياته وآثاره**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر2004م.

4.**أرنولد توماس**: **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين وآخرين، مكتبة النهضة العربية، القاهرة 1970م

5.حسن إبراهيم حسن: **انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط2، مكتبة** النهضة المصرية، القاهرة،1963

6.**حسن يوسف فضل**: **الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، العرب وإفريقيا**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت1984م

---

1 -أحمد الحمدي: مخطوطات علماء كنته في خزائن الصحراء الكبرى، في مجلة عصور، العددان 4-5، جامعة وهران الجزائر، ديسمبر2003-جوان 2004، ص166.

7.حميد دولاب ضيدان: **الجذور التاريخية للصلات العربية الافريقية، ط1**، منشورات مركز البحوث والدراسات الإفريقية-سبها، ليبيا 1993م
8.الشيخ سيدي الحاج أمحمد الكنتي: **حول" الزاوية الرقادية الكنتية وأعلامها**، محاضرة ضمن أعمال الملتقى الثاني حول دور آل كنتة في نشر الثقافة الإسلامية، زاوية كنتة أدرار في 20ماي 2004 (عمل غير منشور).
9.عبد الرحمان ابن خلدون: **كتاب العبر**، ج7، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1959م
10.عبد الرحمان السعدي: **تاريخ السودان**، نشر هوادس، ط1، باريس 1964م.
11.عبد الرحمان تشايجي: **الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى**، ترجمة علي اعزازي، مراجعة محمد الأسطي، تقديم محمد الطاهر الجراري: ط2، **مركز جهاد الليبيين** للدراسات التاريخية، طرابلس1993م
12.عبد الرحمان عبد الله الشيخ: **دول الإسلام وحضارته في إفريقيا**، دار اللواء، الرياض 1983م
13.عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية والتأثير الاوربي في إفريقيا جنوب الصحراء**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989م
14.عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: **أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية**، مكتبة مدبولي، القاهرة(د.ت)
15.عبد المجيد عابدين: **تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث، ط2**، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1967م
16.فرج محمود فرج: **اقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1977

16.قاسم جمال زكريا: **الروابط العربية الإفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية، العلاقات العربية الإفريقية**، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار، (م.ع. ت. ث. ع) القاهرة1977
17.مبخوت بودواية: **العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان**، رسالة دكتوراه قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان،2006/2005م
18.محمد الجيدي: **محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في المغرب الإسلامي**، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، (د.ت)
19.محمد باي بلعالم: **قبيلة فلان في الماضي والحاضر**...، دار هومة، الجزائر2005م
20.محمد باي بلعالم، **الرحلة العلية، ج2، دار هومة، الجزائر2005م**.
21.محمد بن عبد الكريم البكراوي التمنطيطي: **جوهرة المعاني فيما ثبت لدى من علماء الألف الثاني**، مخطوط بالخزانة سيدي أحمد ديدي تمنطيط،أدرار
22.محمد حوتية: **توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة/18-19م**، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر2007م
23.محمود حسن أحمد:**الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**، ج1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963م
24.محمود كعت التنبكتي: **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، طبعة هوادس، باريس، 1964م.
25.نعيم قداح: **حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية**، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1975م
26.يحي بو عزيز: **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1999م

ثانيا: الدوريات

27.أحمد الحمدي: **مخطوطات علماء كنته في خزائن الصحراء الكبرى**، في مجلة عصور، العددان 4-5، جامعة وهران الجزائر، ديسمبر 2003-جوان 2004

28.إسماعيل العربي: "**مسالك الإسلام والعربية إلى الصحراء الكبرى**"، في مجلة الثقافة، عدد 62، الجزائر 1981م

29.السر سيد أحمد العراقي: "**انتشار اللغة العربية في بلاد غربي إفريقيا عبر التاريخ** "، في مجلة الدراسات العربية الإفريقية، العدد الأول، جامعة الخرطوم 1985م

30.عبد الحميد البرامة: "**تنبكتو نافذة على التاريخ والتراث الإسلامي**"، في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد04، طرابلس1987

31.عبد المجيد مزيان: "**طريق الذهب وطريق الثقافة**"، في مجلة الأصالة، العدد الثالث، (الجزائر، أوت1971)

32.عمار هلال: "**مواقف الاحتلال الفرنسي من اللغة العربية في إفريقيا السوداء**"، في مجلة الثقافة، عدد60، الجزائر، 1980م

33.عمار هلال، **مساهمة بعض الشخصيات السودانية في نشر الإسلام في غرب إفريقيا السوداء**، مجلة الاصالة، السنة التاسعة، (الجزائر، نوفمبر-ديسمبر 1980م)

34.قمر الدين فضل الله: "**لمحة تاريخية عن مملكة سنغاي الإسلامية 1468-1951م**"، في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد4، طرابلس 1987م

35.محمد جلال عباس: "**اللغة العربية في إفريقيا**"، في مجلة الدارة، السنة 9، العدد 10، الرياض، 1983م

ثالثا: بالأجنبية

36 .A.G.P.Martin ; Quatre siècle D'histoire marocaine au sahara(1504-1902),Paris,1923.